



المحجّاج بن يوسف النصفى

جبار الحرب الذي أحمّد الثورات وقضى
على المتمردين والخارجين

مع الحجاج



نحن اليوم مع شخصية عجيبة ، إنها شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي الذي ملأ ذكره الكتب قديمها وحديثها ، لقد كان عجيبا في نشأته ، وتكوينه النفسي ، وبلوغه عالم الشهرة في زمن قصير من حياة لم تزد على خمس وخمسين سنة !

ويقول التاريخ : إنه بدأ حياته معلما للصبيان بالطائف حيث ولد ، مشاركاً أباه في هذه المهنة !

ثم التحق بشرطة «ابن زبّاع» الذي رشحه ليقوم بهذه المهمة ، لدى الخليفة بعد أن رأى تهاون الناس .

فتولى أمر عسكر «عبد الملك بن مروان» ، لما عرف به من القسوة والمبالغة في العقوبة!

ثم وجهه عبد الملك بن مروان إلى «الحجاز» لإخماد ثورة «عبد الله بن الزبير» فنجح في إخمادها ، والقضاء عليها في مهدها ! فكان القائد الذي مكن لبني أمية !

ثم تولى أمر «العراق» فحكمه بالسيف والحديد طوال عشرين عاما أخرس فيها الألسنة ، وأشاع الرعب والفرع في النفوس ، ومكن لبني أمية في الأرض بلسانه وسيفه حيث قتل خلقاً كثيرا ؛ أشهرهم : «سعيد بن جبّير» الذي قال عنه الإمام أحمد بن حنبل قولته المشهورة :

«قتل الحجاجُ سعيدَ بنَ جبّير ، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه»!!

وهناك جوانب أخرى سجلها التاريخ للحجاج ومن حقه أن

تعرفَ ماله وما عليه إن أردت الحكم عليه!

فقد كان الحجاج أحدَ فصحاء العرب المشهورين وكفاه قول «
أبى عمرو بن العلاء» : «ما رأيتَ أحدًا أفصحَ من الحسن
البَصْرِيِّ، والحجاج» .

وهو صاحب اليد الطُولَى على اللغة العربية ، فقد كانت
الحروف بلا نقط مما جعل الناس يَلْحَنُونَ وَيُخْطِئُونَ وكان
العلاجُ هو وضع النقط فوق الحروف وتحتها فى لغتنا
الشريفة .

ويقال : إن الذى وضع النقط التى تميز الحروف المتشابهة
فى الرسم كالباء والتاء ، والراء ، والزاي ، والحاء والجيم ،
والحاء هو «نصر بن عاصم» ؛ وضعها أفرادًا ، وأزواجًا ،
وخالف بين أماكنها ، فنقطه ، ونقطتان ، وثلاث ، وفوق الحرف
وتحته ، وهو أيضا - أحد الذين شاركوا «أبا الأسود الدؤلى»
فى وضع قواعد النحو العربى ، وتأصيل أصوله .

ومن أوليات الحجاج أنه أول من ضرب درهما عليه :

«لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

والحجاج خطيب من خطباء العرب المفوّهين ، ممن ملكوا
ناصية البلاغة ، حتى قالوا : إن الحجاج كان ينال بكلامه مالا
ينال بحدِّ حُسامه، ومازلنا نذكر خطبته بالكوفة أول ولايته على
العراق تلك التى قال فيها :

أنا ابن جَلا^(١) وطلاعُ الثنأيا^(٢)

متى أضع العمامةَ تعرفونى

(١) ابن جلا : الصبح يجلو سواد الليل .

(٢) والثنايا : الطرق فى الجبال . وطلاعها : جلد يتحمل المشاق ، أو يسعى لمعالي الأمور !

وكان الحجاج صاحب ذوق فى الشعر يجمع لديه الشعراء من أمثال : الفرزدق ، وجريير ، والأخطل ، وليلى الأخيلية ، فلا عجب أن تمتلئ بذكره كتب الشعر والأدب والنقد كما امتلأت كتب الوقائع والحروب والسياسة والرياسة !

فتعال نتابع خطاه ، ونطالع قصصا بقى لنا من ذكراه ، حيث يتاح لك أن تعرف الكثير من جوانب هذه الشخصية التى حارت فيها الآراء ، واختلفت الأهواء .
والله يعصمك ، ويرشدك .

المحاسن والمساوى



قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان :
ذكر «الحجاج» عند «عبد الوهاب الثقفى» بسوء فغضب وقال : إنما تذكرون المساوى ، أوَمَا تعلمون أنه :
● أول من ضرب درهما عليه : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

● وأول من بنى مدينة - بعد الصحابة فى الإسلام ، وسماها «واسط» لتوسطها بين الكوفة والبصرة .
● وأول من اتخذ المحامل ^(١) .

● وكفاه فخرا أن امرأة من المسلمين سُبِيَتْ ^(٢) فى «الهند» فقالت : «وَاحَجَّاجَاهُ!» فاتصل به ذلك ، فجعل يقول : «لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ يَا أَخْتَاهُ!» وأنفق سبعة آلاف درهم حتى أنقذ المرأة !

● واتخذ «المناظر» ^(٣) بينه وبين قزوين ، فكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المناظر ، وإن كان ليلا أشعلوا نيرانا فتجرى

(١) جمع محمل ، وهو الهودج . (٢) أسرت .

(٣) المناظر : قلاع ، وما أشرف من الأرض وارتفع .

الخيال إليها ، فكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط ،
وأصبحت قزوين ثغرا حينئذ .

وعندما كثر التصحيف ^(١) -بعد أن ظل الناس يقرءون في
مصحف عثمان نيفا وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان
فزع الحجاج بن يوسف إلى كتابه ، وسألهم أن يصنعوا للحروف
المشبهة علامات .

دعاني من هو خير منك



حكى التتوخي قال :

رُوى أن الحجاج حجَّ فنزل يوماً على ماء بين مكة والمدينة ،
فدعا بالغداء ، وكان من عاداته أن لا يتغدى وحده ، فقال
لحاجبه : انظر من يتغدى معي!

فخرج الحاجب ، فنظر نحو الجبل ، وإذا هو بأعرابي بين
شملتين ^(٢) من شَعْر - نائم - فأيقظه ، وقال له :

إيتِ الأميرَ ، فأتاه ، فقال له الحجاج :

اغسل يدك ، واقعد ، فتغدَّ معي ، فقال :

إنه دعاني من هو خير منك فأجبتَه ؛ فقال له :

ومن هو ؟ قال : الله عز وجل دعاني إلى الصوم فصمت .

قال : في مثل هذا الحر الشديد؟!

قال : نعم ، صمت ليوم هو أشد منه حرًا .

قال : فأفطِر اليوم ، وصمَّ غدًا .

قال : إن ضمنت لى البقاء إلى غد !

(١) صحف الكلمة : كتبها ، وقرأها علي غير صحتها لاشتباه في الحروف .

(٢) الشملة : كساء من صوف أو شعر يغطي به ، ويتلف به .

قال : ليس ذلك إلى !

قال : فكيف تسألنى عاجلاً بأجل لاتقدر عليه ؟

قال : إنه طعام طيب !

قال : لم تطيبه أنت ولا الطباخ ، وإنما طيبته العافية .

عندما تبسم الحجاج



وجه «الحجاج» إلى «هند» بنت إسماعيل بن خارجة من يخطبها ، ووجه إليها ثلاثين غلاماً مع كل غلام عشرة آلاف درهم ، وثلاثين جارية ، مع كل جارية صندوق ثياب ، وقال لها : «إنى أكره أن أكون خلوّاً ، ومالى زوجة»

فقالت : وما احتباس امرأةٍ عن زوجها ، وقد ملكها ، وآتاها صداقها ، وكرامتها؟! ثم أصلحت من شأنها ، وأتته من ليلتها ! ويقول المدائنى : بلغنى عن المرأة التى تولت زفّها إليه أنها قالت :

دخلنا على الحجاج ، وهو فى بيت عظيم ، فى أقصاه ستارة ، وهو دون الستارة على فرشه .

فلما دخلتُ عليه سلمت ، فأوماً ^(١) إلىّ بقضيب كان فى يده ، فجلست عند رجليه ، ومكث ساعة لا يتكلم ومن معى وقوف!!

فضربتُ بيدها على فخذه ، وقالت :

«ليس هذا وقت سوء الخلق» !!

فتبسم الحجاج ، وأقبل عليها ، واستوى جالساً ، فدعونا له ، وأرخينا الستور عليهما!!

(١) أوماً : أشار ، والقضيب الغصن ، ويقال للسيف قضيب أيضاً .

مم ضحك الحجاج؟

كان الحجاج يُحبُّ الفكاهة الرائقة ، ويستطيبها حتى ولو أصابه (١)!

ذكروا أنه خرج بلا حرس متتكرا يتفقد أحوال الناس ، فصادف رجلا فى طريقه ، فسأله عن الحجاج ، فأطلق الرجل لسانه فى الحجاج سباً وشتماً ، وتجريحا!

وحين انتهى الرجل قال له الحجاج :

أتعرف من أنا ؟ قال الرجل : لا .

فقال له الحجاج : أنا الحجاج .

وهنا قال الرجل : أتعرف من أنا ؟

قال الحجاج : لا .

قال الرجل : وأنا «مجنون بنى عجل» يصيبنى الصرّع مرتين فى الشهر ؛ فلا أدرى ما أقول !

فضحك الحجاج من كل قلبه ، وأمر للرجل بجائزة ! ، على حسن تخلصه !!

لماذا أطلق الحجاجُ سراحه؟

تغزل الشاعر «النميرى» بـ«زينب» أخت الحجاج بقوله :

ولما رأت ركبَ النميرى أعرضتُ

وكنّ من أن يلقينّه حذراتٍ (٢)

(١) أى ، ولو رأى فيها تعريضا به أو مساساً ، أو نيلا منه ، ونقدا له ، كما فى هذه القصة !

(٢) الشاعر النميرى هو محمد بن عبد الله شاعر غزل من شعراء الدولة الأموية يصف ما كان من محبوبته زينب - أخت الحجاج من إعراض وحذر حين رأت ركبها ، ومعها صاحبات لها .

فسأله الحجاج - بعد أن أمسك به - وقال له :
مِمَّ كان يتألف ركبك الذي رأته ، فأعرضت عنه حذراً ؟!
فأسعفته سرعة بديهته أن يقول :
كان يتألف مني ، ومن حمار هزيل !
فأضحك الحجاج ، ورققت هذه الفكاهة الخفيفة قلب
الحجاج القاسي الغليظ !
فأطلقه ، وعفا عنه ، ونجا الشاعر بـ «جلده» !

ويحك يا شعبيّ !



قال الحجاج للشعبيّ :
كم عطاءك ؟!
فقال الشعبيّ : ألفين !
فقال الحجاج : ويحك كم عطاؤك ؟
فقال الشعبيّ : ألفان .
فقال الحجاج : كيف لحتت أولاً ؟
فقال الشعبيّ : لحن الأمير ، فلحتت !
فلما أعربَ أعربت !
وما يحسنُ أن يلحنَ الأميرُ وأعربَ !
فاستحسن الحجاج منه ذلك وأجازه !
ووجه الخطأ أن كم استفهامية لها الصدارة مع أنها خبر
مقدم ، فكان أصل الكلام : «عطاؤك كم؟» .

وتكون الإجابة عنها بذكر الخبر الذى حذف مبتدؤه للعلم به وهو مرفوع لا منصوب . فيقال جوابا عن السؤال : ألفان لا ألفين .

فلما لحن الحجاج لحن الشعبي أدباً مع ولي الأمر وتلطفاً .
واللحن الخطأ في ضبط الكلمة والنطق بها على قواعد الإعراب من رفع ، ونصب ، وجر ، وجزم .

ليلى الأخيالية والحجاج

«ليلى بنت عبد الله بن الرِّحَال» من النساء المتقدمات فى الشعر ، وقد أحبها «توبة بن الحُمَيْر» وهام بها ، ولكن أباهما زوّجها غيره ، فعاشت معذبة لفراقه ، وتمنى لو يراها ، ولكن السلطان أهدر دمه إن هو لاحقها ! ، وتعرض لها !!
ويقول أبو الفرج :

أخبرنى الحسن بن على عن رجل يقال له : ورقاء قال :
سمعت الحجاج يقول لىلى الأخيالية : إن شبابك قد ذهب ،
واضحلُّ أمرُك ، وأمرُ «توبة» فأقسِمُ عليك إلا صدَّقْتِنِي !
هل كانت بينكما ربيبةٌ قطُّ ، أو خاطبك فى ذلك قط ؟

قالت : لا والله أيها الأمير ، إلا أنه قال لى لىلة - وقد خلونا - كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر ، فقلت له :
وذى حاجة قلنا له : لاتَّبِعْ بها

فليس إليها ماحييت سبيلُ

لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونه

وانت لأخبرى فارغٌ وحليلُ^(١)

(١) حليل المرأة : زوجها .

فلا والله ما سمعت منه ربيبةً بعدها حتى فرق بيننا الموت !

قال لها الحجاج : فما كان منه بعد ذلك ؟

قالت : وجه صاحبها له إلى حاضرنا (١) ، وقال له : إذا أتيت
حيها ، فاصعد إلى أعلى مكان ثم اهتف بهذا البيت .

عفا الله عنها أهل أبيتن ليلةً

من الدهر ، لا يسرى إلى خيالها ؟

فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى ، فقلت له :

وعنه عفا ربي ، وأحسن حفظه

عزيز علينا حاجة لا ينالها

اذهب فاقطع لسانها !!



روى الأصبهاني قال : أخبرني الحسن بن علي عن رجل من

بنى عامر يقال له «ورقاء» قال :

كنت عند الحجاج بن يوسف فدخل عليه الأذن (٢) ، فقال :

أصلح الله الأمير ، بالباب امرأة تهدر كما يهدر البعير الناد (٣) .

فقال ، أدخلها ، فلما دخلت ، وعرفها قال لها :

ما أتى بك ياليلي ؟

قالت : إخالف النجوم (٤) ، وقلة الغيوم ، وكلبُ البرد (٥) .

وشدة الجهد ، وكنت لنا - بعد الله - الرّد (٦) .

قال : فأخبريني عن الأرض .

(١) حيناً .

(٢) الناد : الشارد .

(٣) من يأذن بالدخول عليه .

(٤) تريد امتناع المطر مما تسبب عنه الجذب ، والقحط ، والجفاف ، والتصحر .

(٥) الرد : العماد .

(٦) شدته .

قالت : الأرضُ مقشعرةٌ^(١) ، والفضجاج مغبرةٌ^(٢) ، وذوالغنى
مُختَلٌّ^(٣) ، وذو الحدِّ مُنْقَلٌّ^(٤) !

قال : وما سبب ذلك ؟

قالت : أصابتنا سنون مجحفة^(٥) مظلمة ، لم تدع لنا فصيلاً
ولا رُبْعاً^(٦) ، ولم تُبق عافطةً ولا نافطةً^(٧) ؛ فقد أهلكت الرجال ،
ومزقت العيال ، وأفسدت الأموال .

وعندئذ قال الحجاج : هذه هي ليلي التي تقول :

نحن الأخاييل^(٨) لا يزال غلامنا

حتى يدبَّ على العصا مشهوراً

تبكى الرماحُ إذا فقدن أكفنا

جزعاً ، وتعرفنا الرفاقُ بحوراً

ثم قال لها : ياليلي ، أنشدنا بعض شعرك في «توبة»

فقلت :

لَعَمْرُكَ ما بالموت عارٌ على الفتى

إذا لم تُصبه في الحياة المعاييرُ

وما أحدٌ حَيٌّ ، وإن عاش سالماً

بأخلد ممَّن غيَّبَتْه المقابرُ

فلا الحىُّ مما أحدث الدهرُ مُعتَبُ

ولا الميتُ إن لم يصبرِ الحىُّ ناشر

(١) أصابها الجفاف لعدم نزول المطر .

(٢) الفجاج جمع فج ، وهو الطريق بين جبلين .

(٣) مختل : محتاج من الخلة وهي الحاجة . (٤) منقل : منكسر متلثم .

(٥) السنون جمع سنة ، وهي القحط ، مجحفة : أذهبت الأموال ، وأصابتها بالضرر .

(٦) الفصيل : ولد الناقة أو البقرة - إذا فصل عن أمه ، والرُبْع : ما نتج في الربيع .

(٧) العافطة : الضائنة . النافطة : الماعزة .

(٨) الأخاييل : الذين ينتمون إلى الأخيل جدها فارس الهزار .

وكلُّ جَدِيدٍ ، أَوْشَبَابٍ إِلَى بِلَى

وكلُّ أَمْرٍ يَوْمًا إِلَى الْمَوْتِ صَائِرٌ

فقال الحجاج لحاجبه : اذهب فاقطع لسانها (١)!!

فدعا لها بِالْحَجَّامِ (٢) ليقطع لسانها !

فقالت : ويلك !

إنما قال الأمير : اقطع لسانها بالصَّلَّةِ وَالْعَطَاءِ ، فارجع إليه

واستأذنه!!

فرجع إليه فغضب من غباء الحاجب ، وهَمَّ بقطع لسانه ، ثم

أمر بها فأدخلت عليه ، فقالت :

كاد - وعهد الله - يقطع مَقُولِي «لسانى» ، وأنشدته:

حَجَّاجُ أَنْتَ الَّذِي لَا فَوْقَهُ أَحَدٌ

إِلَّا الْخَيْلِفَةُ ، وَالْمُسْتَغْفِرُ الصَّمَدِ

حَجَّاجُ أَنْتَ سِنَانُ الْحَرْبِ إِنْ نُهَجْتُ (٣)

وَأَنْتَ لِلنَّاسِ فِي الدَّاجِي لَنَا تَقِيدُ (٤)

ثم قالت :

أَحَجَّاجُ لَا يُقَلِّلُ سِلَاحُكَ إِنَّمَا الْ

مَنَا يَا بَكْفُ اللَّهِ حَيْثُ تَرَاهَا

إِذَا وَطِئَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً

تَتَبَّعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَّاهَا

(١) يريد أعطاها ما يجعلها ترضى ، وتسكت .

(٢) أشبه بالحلاق غير أن له مهمة أخرى !

(٣) نهجت : سلكت . الداجي : المظلم .

(٤) تقيد : توقد نارك ، أرادت أنه إذا نزل بهم ضيق فرجه .

شفاها من الداء العُضَالِ الذي بها

غلام إذا هزَّ القنَاةَ سَقَاها (١)

أحجاجُ لا تُعْطى العُصَاةَ مِنْهُمُ

ولا اللهُ يُعْطى للعُصَاةِ مِنْهَا

فلما قالت : «غلام إذا هزَّ القنَاةَ سقاها»

قال لها : لا تقولى «غلام» قولى «هُمَامُ» .

وأمر لها بمائتين ، فقالت : زدنى .

فقال : اجعلوها ثلاث مئة .

قال بعض جلسائه : إنها غنم !

فقالت : الأمير أكرم من ذلك ، وأعظمُ من أن يأمر لى إلا

بالإبل !

قال : فاستحيا ، وأمر لها بثلاث مئة بغير ، وإنما كان أمر

لها بغنم لإبل !

ويقول الأصمعى : إن الحجاج أمر لها بعشرة آلاف درهم ،

وقال لها : هل لك حاجة ؟

قالت : نعم ، أصلح الله الأمير ! ، تحملنى إلى ابن عمى

«قتيبة بن مسلم» وهو على خراسان يومئذ - فحملها إليه ،

فأجازها ، وأقبلت راجعة تريد البادية ، فلما كانت بالرّى ماتت ،

ودفنت هناك .

(١) القنَاة : يعني الرمح ، وسقاها من دماء أعدائه من الطفلة والبغاة والخارجين .

الحجاج وامرأة من الخوارج



قيل : أُتِيَ الحجاج بامرأة من الخوارج ، فجعل الحجاج يكلمها وهى مطرقة إلى الأرض لا تكلمه ، ولاتنظر إليه ! فقال لها رجل من الشرط^(١) :

الأمير يكلمك ، وأنت معرضة !؟

فقالت : «إنى لأستحي من الله أن أنظر إلى رجل لا ينظر الله إليه» .

نعم لقد قضى الحجاج على كل حركات التمرد ، وواجه الخوارج على الدولة بكل حزم ، وبلا رحمة ولاشفقة وكانت السياسة التى أعلنها سياسة الحكم العرفى ، أو الحكم العسكرى . كما نعبّر عنه اليوم - ولكنه جرى عليها طوال حكمه !

الحجاج وعمران بن حطان



أمر الحجاج بقتل عمران بن حطان حينما خرج على بنى أمية ، فقال للسياف :

اضرب عنق «ابن الفاجرة» .

فقال عمران : لبئس ما أدبك أهلك يا حجاج !

كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما لَقَّبْتَنِي به !؟

أفبعد الموت منزلة أصانِعك عليها^(٢) !؟

(١) الشرط : حفظة الأمن فى البلاد ، الواحد شُرطى بسكون الراء وشُرطى - بفتحها - والجمع : شُرط .

(٢) مادمت قد حكمت على بالقتل فما الذى يجعلني أسكت على الإهانة ، وأرضى بالإساءة ، وأقبل منك ما لقبْتَنِي به !؟ وهل بعد الحكم بالموت ما يخاف منه !؟

فخجل الحجاج ، وإن شئت فقل :

أثرت فيه بلاغة الرجل وشجاعته ، فقال : خلوا عنه !

فطوقت عنقَ الرجل الخارجي «عمران بن حطان» هذه
المكرمة من الحجاج !

وجاء أصحابه بعدها يؤلبونه ^(١) لحرب الحجاج ، فقال :
هيهات ، ثم هيهات ! ؛ لقد غلَّ يداً مُطلقها ! ، وأسَرَّ رَقَبَةً
مُعْتَقها ! ، فذهبت على وجه الزمان مثلاً !!

||| لم عزل عبدُ الملك الحجاج

عن الحرمين الشريفين ؟

يقول «أبو القاسم التتوخي» في كتابه : «المستجد من فعلات
الأجواد» :

لما قتل «الحجاج» «عبد الله بن الزبير» رحل إلى «عبد الملك
ابن مروان» ومعه «إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله»
فلما قدم على عبد الملك لم يبدأ بشيء من الكلام سوى أن
قال : قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز في الشرف ،
والأبوة ، ولم أدع له فيها - والله - نظيراً في كمال المروءة ،
وحسن المذهب والطاعة ، والنصيحة مع القرابة من أمير
المؤمنين : «إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبد الله» ، فافعل
به يا أمير المؤمنين ما يستحق أن يفعل بمثله في أبوته وشرفه !
فقال له : يا أبا محمد ؛ أذكرتتنا حقاً واجبا ، ورحمًا قريبة ،
إئذنوا لإبراهيم .

فلما دخل وسلم ، أمره بالجلوس في صدر المجلس ، وقال

(٢) يحرضونه عليه ، ويفسدون ما بينه وبينه !

له : إن أبا محمد «يعنى الحجاج» ذكّرنا ما لم نزل نعرفك به فى الأبوة والشرف ، فلا تدع حاجة من خاصّ أمرك وعامّه إلا سألتنيها !

فقال إبراهيم :

أما الحوائج التى ينبغى بها الزلف^(١) ، ويرجى بها الثواب ، فما كان لله خالصاً ولنبيه محمد ﷺ ، ولك وللمسلمين عندى نصيحة لا أجد بدأ من ذكرى إياها !

قال : أهى دون أبى محمد ؟

قال : نعم .

قال : قم يا حجاج .

قال : فنهض الحجاج خجلاً لا يُبصر أين يطاء ؟

ثم قال : قل يابن طلحة ؛ فقال :

يا أمير المؤمنين إنك عمدت إلى الحجاج فى ظلّمه وتعتّرسه ، وتعدّيه ، ويعدّه عن الحق ، وإصغائه إلى الباطل ؛ فولّيته الحرّمين ، وفيهما من أبناء المهاجرين والأنصار ، وأصحاب الرسول ﷺ يسومهم الخسف^(٢) ، ويطوهم بالعسف بطغام^(٣) أهل الشام ، ورعاع^(٤) لا روية لهم فى إقامة حق ، ولا إزاحة باطل فاعزله !

فأطرق عبد الملك ، ثم رفع رأسه ، وقال : كذبت ودست يابن طلحة ! ، ولقد ظن بك الحجاج غير ما هو فىك ، قم فربما ظنّ الخيرُ بغير أهله !!

(١) القربى والمنزلة . جمع زلفة .

(٢) يذيقهم ذلاً . والحرمان : مكة والمدينة (٣) أرذل الناس وأوغادهم .

(٤) الرعاع : بضم الراء وفتحها ، ولا تكسر : أوغاد الناس .

قال إبراهيم : فقمتم ، وأنا ما أبصر طريقا !

قال : وأتبعنى حَرَسِيًّا^(١) ، وقال : اشدَّدْ يدك به !

قال إبراهيم : فما زلتُ جالسًا ، ودُعِيَ الحجاج ، فما زالاً
يتتاجيان طويلا حتى ساء ظنى ، ولا أشك فى أنه فى أمرى !

قال : ودعانى ثانية ، فلقينى الحجاج فى الصحن^(٢) خارجا ،
فقبل بين عينى وقال :

إذا جزى الله المتأخين بفضل وُدِّهم خيرا فليحسن جزاءك !
والله لئن عشت لك لأرفعن ناظرك ، ولأوطئن عقبك (٣)!

قال : فقلت فى نفسى : يهزأ بى - والله - الحجاج !

ودخلت على عبد الملك فأجلسنى مجلسى ، ثم قال :

يا بن طلحة ، هل شركك فى نصيحتك أحد ؟

فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولا أردت إلا الله ورسوله ،
والمسلمين وأنت !

قال : قد علمت ذلك ، وقد عزلت الحجاج عن الحرمين
عندما كرهته ، وأعلمته أنك استقلت له ذلك ، وسألتنى له
ولاية كبيرة ليلزمه من ذمامك ما يودى به عنى إليك أجر
نصيحتك ، فاخرج معه ، فإنه غير ذامٍ صُحِّبَتَكَ !

(٢) فى الفناء .

(١) شرطيا .

(٣) الناظر : الرسول ، ورفعته رفع لمرسلة ، ويقال : فلان موطأ العقب : كثير الأتباع ، ويلزم من هذا
رفع منزلته .

ظلم الحجاج

جاء في «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويرى ، المجلد الحادى والعشرين ؛ روى أن «عمر بن عبد العزيز» خامس الراشدين - وهو الذى كان أشبه بجده عمر بن الخطاب وملاً الأرض عدلاً - ذكّرَ عنده ظلمُ الحجاج وغيره من ولاة الأمصار^(١) فى أيام الوليد بن عبد الملك ، فقال عمر بن عبد العزيز:

الحجاج بالعراق ! والوليد بالشام !

● وقرةُ بنُ شريك بمصر!

● وعثمانُ بالمدينة !

● وخالد بمكة !

اللهمّ قد امتلأتِ الأرضُ ظلماً وجوراً ، فأرحِ الناسَ ! فلم يَمْضِ غيرِ قليلٍ ، حتى تُوَفِّيَ الحجاجُ ، وقرّةُ فى شَهرٍ واحدٍ ! ثم تبعهما الوليد ، وعُزل عُثمانُ بن حَيَّان ، وخالد بن عبد الله القسرى !

واستجاب الله لعمر^(٢) !

وما أشبه هذه القصة بقصة عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - لما بلغه أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية يقول:

(١) جمع مصر ، أى الأقاليم .

(٢) أما الحجاج فقد عشت معه فى هذا الكتاب ، وأما الوليد فهو اخليفة الوليد بن عبد الملك ، وكان ولى عهده . وأما قرّة بن شريك ، فقد ولى مصر زمن الوليد ، وكان جباراً مخوفاً كالحجاج . وأما عثمان بن حيان المرى فهو والٍ من الغزاة استعمله الوليد على المدينة سنة ٩٣ هـ وكان عنيفاً فى سيرته . وأما خالد بن عبد الله القسرى فقد ولى مكة . وزاد فى «نثر الدر» محمد بن يوسف باليمن ، وهو آخر الحجاج وكان ظالماً . وإذا كانت دولة الظلم ساعة ، فإن دولة العدل إلى قيام الساعة .

إنى ضبطت العراق بشمالى ، ويمينى فارغة !

فقال ابن عمر :

اللهم أرحنا من يمين زياد ، وأرح أهل العراق من شماله !

فاستجاب الله له !

ولا عجب ، فدعوة المظلوم تفتح لها أبواب السماء ، والظلم

مرتعه وخيم !

لماذا بكى الحجاج ؟



ذكر التَّوَيَّرِيَّ من أخبار الحجاج أن عبد الملك كتب إليه يأمره

بقتل «أسلم بن عبد الله البكرى» لشيء بلغه عنه !

فأحضره الحجاج ، فقال : أمير المؤمنين غائب ، وأنت

حاضر ، والله تعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا

بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦]

والذى بلغه عنى باطل ، فاكتب إلى أمير المؤمنين أنى أعول

أربعاً وعشرين امرأة ، وهنّ بالبواب ، فأحضرهن ، وكان فى

آخرهن جارية ^(١) قاربت عشر سنين ، فقال لها :

من أنت منه ؟ قالت : ابنته ، أصلح الله الأمير ، ثم أنشأت ^(٢)

أَحْجَاجُ لَوْتُشْهَدُ مَقَامَ بِنَاتِهِ

وَعَمَاتِهِ يَنْدُبُنِيهِ اللَّيْلَ أَجْمَعَا

أَحْجَاجُ لَا تَقْتُلْ بِهِ إِنْ قَتَلْتَهُ

ثَمَانًا ، وَعَشْرًا وَاثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعَا

(٢) الشعر فى الكامل أيضا ٤-٣٣

(١) جارية : فتاة صغيرة .

أحجاج مَنْ هذا يقوم مقامه

علينا ؟ ، فمهلاً ، أن تزدنا تَضَعُضُعا

أَحْجَاجُ إِمَّا أَنْ تَجُودَ بِنِعْمَةٍ

علينا ، وإما أن تُقْتَلْنَا مَعَا

فبكى الحَجَّاج ، وقال : والله لا أعنتُ الدهرَ عليكَ ، ولا
زِدْتُكَ تَضَعُضُعا

وكتب إلى «عبد الملك» يخبره ، بخبر الجارية ، فكتب إليه :
إذا كان الأمرُ كما ذكرت ؛ فأحسِنْ صِلَتَه ، وتفقد الجارية ! ،
فضعل .

الْحَجَّاجُ وَأَنْسُ بْنُ مَالِكٍ



كان «مصعب بن الزبير» عندما تولى أمر العراق من قبل
أخيه عبد الله بن الزبير قد زاد الناس في العطاء مائة مائة .

فلما ولى الحجاج بعد مقتل «مصعب وأخيه» ، قال لأهل
العراق : إن الزيادة التي زادكم إياها ابن الزبير لسنا نُجيزُها !
فرد عليه «عبد الله بن الجارود» قائلاً :

إنما هي زيادة أمير المؤمنين عبد الملك قد أنفذهما وأجازها
على يد أخيه بشر !

فغضب الحجاج وهدد ابن الجارود ، وانضم إلى ابن الجارود
أصحاب العطاء ، الثائرون لقطع جزء من أرزاقهم ، وكان ممن
انضم إليه عبد الله بن أنس بن مالك ، وكان ممن قتل مع ابن
الجارود في معركة حامية !

ولما عاد الحجاج إلى البصرة أخذ «مال عبد الله» ، فدخل
عليه أنس بن مالك - رضي الله عنه - فحين رآه الحجاج ، قال له : لا

مرحبًا ، ولا أهلاً !!

شيخ ضلالة ، جوال فى الفتن !

مرة مع أبى تراب «على بن أبى طالب - رضي الله عنه»

ومرة مع ابن الزبير !

ومرة مع ابن الجارود !

أما والله لأَجْرِدَنَّكَ جَرْدَ القَضِيبِ ، ولَأَقْلَعَنَّ قَلْعَ ^(١)
الصمغة!

فقال أنس : من يعنى الأمير ؟

فقال : إياك أعنى ، أصمَّ اللُّهُ صَدَاكَ ! (دعاء بالهلاك)

فرجع أنس ، فكتب إلى الخليفة عبد الملك كتابا يشكو فيه
الحجاج ، وما صنع به .

فكتب عبد الملك إلى الحجاج رسالة شديدة اللهجة جاء
فيها :

أما بعد يا بن أم الحجاج ، فإنك عبد طَمَتَّ بك ^(٢) الأمور
فغلوت فيها ، حتى عدوت طورك ، وتجاوزت قدرك ، لأغمزنك
غمزة من غمزات الليوث الثعالب، ولأخبطنك خبطة توذ لها لو
أنك رجعت فى مخرجك من بطن أمك ، أما تذكر حال آبائك
بالطائف حين كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم ، ويحفرون
الآبار بأيديهم ؟

أما نسيت حال آبائك فى اللؤم والدناءة ، وفى المروءة
والخلق ؟

(١) القضيبي : الغصن ، وجرده : إزالة ما عليه من قشر وورق وقلع الصمغة : انتزاعها من مكانها
بالشجر .
(٢) أغوتك ، وزادتك طغيانا على طغيانك .

وقد بلغ أمير المؤمنين الذي كان منك إلى أنس بن مالك
جرأة وإقداماً !

ولولا أن أمير المؤمنين ظن أن الكاتب كثر في الكتابة عن
الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأتاك من يسحبك ظهراً لبطن ،
حتى يأتي بك أنس ، فيحكّم فيك !

فأكرم أنسا وأهل بيته ، واعرف له حقه ، وخدمته رسول
الله ﷺ ، ولا تقصّر في شيء من حوائجه ، ولا يبلغن أمير
المؤمنين عنك خلاف ما تقدم فيه إليك من أمر أنس وبره ،
وإكرامه ! فيبعث إليك من يضربُ ظهرك ، ويهتكُ سترك ،
ويُشمت بك عدوك .

والقه في منزله متصلاً إليه ^(١) ، وليكتب إلى أمير المؤمنين
برضاه عنك إن شاء الله . والسلام .

واجتمع الحجاج بأنس ، ورحب به ، وأدناه ، واعتذر إليه ،
وقال :

أردت أن يعلم أهل العراق إذ كان من ابنك ماكان، وإذ بلغتُ
منك ما بلغت ، أنى إليهم بالعقوبة أسرع .

فقال أنس : ماشكوتُ حتى بلغ منى الجهد !

وقد زعمت أنا الأشرار ، وقد سمانا الله الأنصار!

وزعمت أنا أهل النفاق ، ونحن الذين تبوءوا الدار والإيمان ،
وسيحكّم الله بيننا وبينك ، فهو أقدر على التغيير ، لا يشبه
الحق عنده الباطل ، ولا الصدق الكذب!

وزعمت أنك اتخذتني ذريعة وسُلماً إلى مَسَاءة أهل العراق

(١) متصلاً إليه : معتدراً .

باستحلال ما حرم الله عليك منى ، ولم يكن لى عليك قوة ،
فوكلتك إلى الله ، ثم إلى أمير المؤمنين ، فحفظ من حقى مالم
تحفظ!

ولو أن النصارى رأوا رجلا خدم عيسى بن مريم يوما واحداً
لعرفوا من حقه مالم تعرف أنت من حقى ، وقد خدمت
الرسول ﷺ عشر سنين !

وبعد ... فإن رأينا خيراً حمدنا الله عليه ، وأثينا ، وإن رأينا
غير ذلك صبرنا ، والله المستعان .
ورد عليه الحجاج ما كان أخذ منه .
ولن يضيع حق وراءه مطالب !

الْحَجَّاجُ عِنْدَ الْمُحَنِ



قال الجاحظ :

لما مات «محمد» بن الحجاج جزع عليه فقال :

«إذا غسَلْتُمُوهُ فَأَعْلَمُونِي»

فلما نظر إليه قال :

الآن لَمَّا كُنْتَ أَكْرَمَ مَنْ مَشَى

وَأَفْتَرَّ نَابُكَ عَنِ شَبَابٍ^(١) الْقَارِحِ

وَتَكَامَلَتْ فِيكَ الْمُرُوءَةُ كُلُّهَا

وَأَعْنَتَ ذَلِكَ بِالْفِعَالِ الصَّالِحِ؟

ثم أتاه موت أخيه «محمد بن يوسف» فقال :

«إنا لله ، محمدٌ ، ومحمدٌ فى يوم» ثم أنشد :

(١) معنى ظهور نابه تجاوز مرحلة أسنان اللبن ، وكبر واكتمل كما يكتمل الفرس (القارح) الذى
تجاوز شبابة (حد) الصغر . واستتم خمس سنوات . بدليل البيت بعده .

حَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ
وَحَسْبِي بَقَاءُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ
إِذَا مَا لَقَيْتُ اللَّهَ عَنِّي رَاضِيًا
فَإِنْ شَفَاءَ النَّفْسِ فِيمَا هُنَاكَ

الْحَجَّاجُ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ



حين مرض الحجاج كتب إلى الوليد بن عبد الملك كتابا
يخبره بمرضه ، وكتب في آخره :
لقد ذاق هذا الموت مَنْ كَانَ قَبْلَنَا
ونحن نذوق الموت من بعد ذلك

وكان ينشد في مرض موته :
يَارِبًا قَدْ حَلَفَ الْأَعْدَاءُ وَاجْتَهَدُوا
أَيْمَانَهُمْ أَنَّنِي مِنْ سَاكِنِي النَّارِ
أِيْحَلْفُونَ عَلَيَّ عَمِيَاءُ^(١) وَيَحَهُمُ
مَاظَنُّهُمْ بَعْضُهُمُ الْعَضُوءُ غَارًا؟

وذكر بعضهم أن الحجاج حين حضرته الوفاة كان يغيب عن
وعيه ، ثم يُقَيِّقُ ، ويصيح :
مَالِي وَلَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ!!

ويقال: إنه ظل مريضاً قبل الموت مدة ، فكان إذا نام رأى
سعيد بن جبير آخذاً بمجامع ثيابه ، وهو يقول له : يَا عَدُوَّ
اللَّهِ ؛ فِيمَ قَتَلْتَنِي؟

فِيَسْتَيْقِظُ الْحَجَّاجُ مَذْعُورًا وَهُوَ يَقُولُ :

مَالِي وَلَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ؟

(١) على عمياء : علي أمر معمي ومغيب علمه عند الله .

ويقول الجاحظ : لما مات الحجاج خرجت عجوز من داره
وهي تقول :

اليوم يرحمنا من كان يَغْبِطُنَا (١)
واليوم نَتَّبِعُ مَنْ كانوا لنا تَبَعًا

وبعد .. فهذا هو الحجاج بما له وما عليه !
وأمره لله !



(١) يغبطنا : يتمنى أن يكون له مثل مالنا من النعمة من غير أن يتمنى زوالها عنا .